

أطوار الثورة العربية

ثورة العرب الكبرى

للأستاذ نسيب سعيد

قلنا في حديثنا الماضي إن الطور الثالث « للقضية العربية » يبدأ بإعلان الثورة الكبرى رسمياً يوم ١٠ يونيو عام ١٩١٦ ، ونزول العرب إلى ميادين الصراع والكفاح ، وينتهي بإرسال الحسين بلاغه الشهير إلى الدول يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٨ . فنفصل اليوم ما أوجلاه أسس ، ونقول : إن « القضية العربية » كانت في خلال هذه المرحلة — وقد امتدت عامين ونصفاً — عرضة لتيارات مختلفة ، وعوامل متناقضة ، لأنها أعظم الأطوار التي اجتازتها شأنًا . وقد ظن بها الكثيرون من كبار السياسيين الظنون ، واعتقدوا أنه قد لا يكتب لها التغلب على المصاعب التي أحدثت بها من كل جانب ، فكان جمال السفاح يهاجمها من الداخل بكل قواه ، ويبدئ جهوده للقضاء عليها ، والتخلص منها فتم بذلك عمله الأصلي ، ويقضى على كل حركة عربية ، فينال إكليل الغاز والظفر . ولا ريب أن فشله في احتلال مكة وفي إيقاد الحجاز أبقده ما كان يتمتع به من نفوذ في دوائر الآستانة ، وجعل حكومتها تقلص ظله ، وتنقص سلطته تدريجياً حتى جردته من كل حول وطول ، فطلب أن يقال ، وكانت الحرب في عامها الثالث ، فأقبل وعاد حزينا مغموماً إلى الآستانة ، يمض كفيه شجناً وأسى ، وقبع في وزارة الحربية هناك ينتظر ما خبأه له القدر ، ولم يطل به المقام حتى فرّ إلى روسية فماش فيها شريداً طريداً ، ومات قتيلًا منبوذاً ، وتلك عقبى الطاغين

ويجب علينا أن نمتدح في هذا المقام أن معظم الفضل في إيقاد الثورة ، بل في إيقاد القضية العربية في هذا الدور يعود إلى الجهود الخاصة التي بذلها الحسين وأولاده في الأشهر الأولى للثورة الكبرى ، ولولا ذلك لم لفخرى باننا القائد التركي العام بلوغ مكة ، واحتلالها ، والقضاء على الثورة في مهدها وعلى كل حال لا بد لنا قبل الحديث عن حوادث الثورة ووقائنها ، من دراسة مقدمات هذه الثورة وأسبابها وعواملها فقد يساعد هذا الدرس — كما نعتقد — على استخراج نتائج

إيجابية تنير السبيل ، وتجلى الحقيقة عن ثورة العرب الجارية وإذا أردنا البحث عن أسباب الثورة ومقدماتها ، يجب علينا قبل كل شيء ، استعراض علاقات العرب بالترك منذ اتحاد في ظل الهلال العثماني خلال القرون الوسطى ، يوم كان للوزاع الديني المقام الأول ، وكان الشرق يعيش في عزلة تامة عن الغرب ، ويدور في دائرة ضيقة من التقاليد والأساليب ، تسلت إليه من أسلافه الأولين ، وأجداده الأقدمين ؛ فكل من يستعرض هذه العلاقات بين الأمتين المسلمتين ، يسلم بأن العرب لم يجدوا غرضاً في الخضوع لسلطان العثمانيين حينما فرق يوم مرج دابق جيش السلطان « طومان باي خليفة النوري » آخر المماليك المسلمين ، وتقدم إلى دمشق ، فالقدس ، فالقاهرة فأبحاً ، فقد رحبوا به في كل بلد من بلدانهم ، وقطر من أقطارهم ، وبلغ من شريف مكة يومئذ وهو الأمير بركات أن أرسل إلى القاهرة من حمل إلى السلطان المنتصر كتاب بيئته ودخوله في طاعته ، وبهذا الاعتراف اكتسب لقب خادم الحرمين الشريفين . والتعليل الصحيح لهذه الظاهرة الاجتماعية هو الفكرة الدينية ولا شك ، فقد سرى في ذهن العرب من أبناء هذه الأقطار أن في تأييد السلطان الجديد تأييداً للإسلام وإعلاء لشأن الشريعة السمحاء فبايعوه سيداً وإماماً وهبت على ديار الغرب بمد الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ربح القومية ، وتنشق العالم نبات روح جديدة ، حاملة معها حضارة الغرب الحديثة ؛ وكانت بضاعة القومية في جملة صادرات الغرب الجديدة إلى الشرق القديم ، فجاءت تجر توباً قشياً فضفاضاً بفرى ويفتن ؛ إلا أن تأثيرها ظل محدوداً خلال القرن الماضي بسبب الجهل الذي كان مسيطرًا وسائداً . حتى إذا بدت طلائع القرن الجديد شرح العرب ينتمشون تدريجياً ، ويفتحون عيونهم لاستقبال نور الحياة المشرقة عليهم ، المهيبة بهم إلى النهضة والعمل ، لاحتلال المنزلة اللائقة بهم بين الأمم . بدأت هذه الروح القومية الجديدة تهب عليهم نبات خفيفة رقيقة ، ثم أخذت تتابع وتقوى بتقدم الأيام والليالي ، حتى كانت الحرب العظمى الماضية فإذا بتلك النبات الرقيقة قد أصبحت ربحاً صرصراً عاتية ، بل عاصفة هوجاء تتلاعب بالأمة العربية ، وتغذف بها ذات اليمين وذات الشمال .

وما زال العرب اليوم يعيشون في وسط هذه العاصفة ، وفي ملتقى التيارات النصبية عليهم من كل صوب وناحية

التي ربت لها دنيا العرب ، وجزعت ، فنجلت في إضرام ثورة لا تبقى ولا تذر ، حتى قبل أن تعد معداتها وهي أسبابها ، بل وقبل أن يأتي أوانها ؛ مما أثر في تطورهما وحال بين العرب وبين اجتناء الثمرات التي كانوا يرجون اجتناءها في ختام جهادهم الأكبر ، كما كانت سبباً في تغيير الرأي العام التمدن من الاتحاديين الترك واحتقاره لحكومتهم

وكيف لا يجزع العالم العربي لتلك المظالم التي أقدم عليها جمال السفاح ، وتلك الفظائع التي ارتكبتها رجل الظلم والإرهاب من شتى أحرار العرب والتشكيل بأسرهم والتقليل من أجدادهم ، مما لم يعرف التاريخ في صفحاته له مثيلاً ؛ وكذلك كان لبعض رجال العرب من الذين أفلتوا من قبضة الظلم والإرهاب فلبجأوا إلى مصر والمراق والحجاز ، يد كبيرة في إمارة « الرأي العام العربي » على الترك ، وتغييره منهم ، وتفهيمه « القضية العربية » على وجهها الصحيح ، وفي إعداده للثورة الكبرى والشعبية المضرة العظمى طلباً للثأر والانتقام ، كما يبكي شعراء العرب وكتابتهم في مصر والمراق والحجاز وأمريكا الشهداء الأبرار ، مستترلين سخط العالم التمدن على الطغاة الظالمين

ويجب علينا هنا قبل الحديث عن وقائع الثورة وحوادثها أيضاً درس العلاقات التي كانت قائمة بين زعيم الثورة شريف مكة ، وبين الاتحاديين الترك قبل الجرب الماضية ، فإن هذا الشريف لم يبق في استطاعته أن يتجنب الاصطدام بالترك ، وأن يحجم عن مصارحتهم الشر والمدوان بعد ما وصلت الحالة في بلاد العرب إلى الدرجة القصوى من الانحطاط والمدوان ، رغم اصطناع المودة بينهما ، وقد ظل كل فريق يبدئها للفرق الآخر حتى اللحظة الأخيرة لظهور نيات الترك واضحة جلية إزاء « الحسين » شريف مكة ، وإزاء أولاده أولاً ، وإزاء قومه العرب ثانياً ، وما كان هؤلاء يضمرون شراً للدولة العثمانية ؛ وما كانوا - علم الله - يتمنون زوالها أو الخروج عن طاعتها لولا أنها بادأتهم الشر

والواقع أنه كانت هناك جملة عوامل بعضها شخصي ، وبعضها قومي ، وبعضها ديني ترغم « الحسين » على التفكير فيما فكر فيه قبله عزيز مصر الخالد « محمد علي الكبير » في العمل على وحدة العرب ، وضم شملهم ، وكم شملهم ، وتأسيس دولة

فاذا نحن قمينا الأثر البارز للقوى العظيمة المتفاعلة وإيام وجدناه في هذه الهبة القومية التي تدفعهم إلى استكشاف أنفسهم ، وتحزير أفرادهم ومجموعهم ، واستمادة سالف مجدهم ، وإثبات مكانتهم في المجتمع البشري . وما من أحد يلمس الحياة العربية الحاضرة إلا ويشعر بهذه الهبة المرتفعة من صدور العرب في شتى أقطارهم ، البشرة بنهضة جديدة ، يربى لها ما كان لسابقتها - في المصور الوسطى - من عز منيع ، ومجد رفيع ، ومساهمة ذات شأن في تقدم التمدن الإنساني ، والحضارة العالمية

وكما هبت ريح القومية على العرب ، كذلك هبت على الترك حتى إن بعضهم تشبع بفكرة القومية الطورانية ، فكان ذلك مقدمة تمحول عظيم في صلات الأمتين : العربية والتركية ، وقد ختم هذا الدور (٢٣ يوليو عام ١٩٠٨ - ٣٠ أكتوبر عام ١٩١٨) بانفصالها من بعض بعد ما عاشا متحدتين مدى أربعة قرون ، يخلصان لنظام واحد ، ولعلم واحد ؛ فأنهار بذلك الانفصال - بناء الأمبراطورية العثمانية ، وقام مقامه صرح جمهورية أنقرة الجديدة ، كما قامت هذه الدول العربية المنبثقة في بلاد العرب من أقصى الجنوب حتى أقصى الشمال

أما الخللان العنصرى الذي نشأ بين العرب والترك ، فقدتمته كانت - ولا شك - قضية إبعاد العرب عن وظائف الدولة ؛ وقد بلغ أشده عن طريق الصحافة ، إذ كانت الصحف التركية الجديدة تدعو إلى تعزيز القومية الطورانية ، والتحامل على القوميات الأخرى ، وتحض الحكومة على مقاومتها والقضاء عليها . ولم تقصر صحافتنا الترك والعرب في التراشق بالألفاظ والجلل ، والنمز واللمز ، كما لم يقصر شعراء الأمتين في نظم القصائد والمقطوعات التي تركز نيران القومية في القلوب .

أضف إلى ذلك عمل الكتاب العرب الذين ترحوا إلى وادي النيل السميد ، فقد أذكوا روح القومية العربية بما كتبوا ونظموا ، فكان عملهم أشبه بعمل روسو وفولتير ومنسكيو وديدرو في إذكاء ثورة فرنسا الكبرى سنة ١٧٨٩

تلك هي إذن مقدمات الثورة العربية وأسبابها البعيدة ، أضف إليها عمل الجمعيات العربية بصورة خاصة . أما الأسباب القريبة أو المباشرة لها ، فهي تصرفات جمال السفاح ومظالمه